جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنين بدسوق

مجلة الدراية
https://drya.journals.ekb.eg

مجلة الدراية
مجلة علمية محكمة نصف سنوية

(من بلاغة التعبير النبوي عن كبار السِّنّ)

الدكتور/ مستور عبد الفضيل عبد الحميد يعقوب
مدرس البلاغة والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بدسوق

من بلاغة التعبير النبوي عن كبار السِّنّ

مستور عبد الفضيل عبد الحميد يعقوب
قسم البلاغة والنقد – كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق– جامعة الازهر – مصر.
البريد الإلكتروني : mstwrbdalfdylbdalhmyd@gmail.com

الملخص:

تدور فكرة البحث حول بلاغة النبي ﷺ في التعبير عن حقوق كبار السِّنِّ في الشريعة الغراء، من توقيرهم، والبدء بالسلام عليهم، والتيسير عليهم في الأحكام... كل ذلك في بلاغة عالية، وأسلوب مشِّوق. والبحث يتناول هذه الأحاديث بالدراسة البلاغية التحليلية الشاملة بغية الوصول للمعنى النبوي المراد؛ لامتثاله والعمل به. مع تسليط الضوء على أهم الأساليب والصور البلاغية التي ارتكز عليها البيان النبوي في ترسيخ حقوق كبار السِّنِّ والدعوة إليها. وهكذا سبقت البلاغة النبوية الشريفة كل المنظمات العالمية في الدعوة إلى الإحسان إلى كبار السِّنِّ، والرحمة بهم، وكفالة حقوقهم .

الكلمات المفتاحية: الكبير، المسن، الكهل، الهرم، البلاغة النبوية.

From the eloquence of the prophetic expression of the elderly

Mastour Abdel Fadil Abdel Hamid Yacoub
Rhetoric and Criticism - College of Islamic and Arabic Studies in Dessouk
E-mail: mstwrbdalfdylbdalhmyd@gmail.com

Abstract:
The idea of the research revolves around the eloquence of the Prophet, may God bless him and grant him peace, in expressing the rights of the elderly in the noble Sharia, such as respecting them, beginning to greet them, and making rulings easy for them...all of this in high eloquence and an interesting style. The research deals with these hadiths through a comprehensive analytical rhetorical study in order to reach For the intended prophetic meaning; To comply with it and act upon it, while highlighting the most important rhetorical methods and images on which the Prophet's statement was based in consolidating the rights of the elderly and calling for them. Thus, the honorable prophetic eloquence preceded all international organizations in calling for kindness to the elderly, compassion for them, and guaranteeing their rights.

Keywords: Old, Elderly, Middle-aged, Senescent, Prophetic Eloquence.

المقدمة

الحمد لله الرحيم الرحمن، والصلاة والسلام على سيد ولد عدنان، صاحب أفصح لسان، وأبلغ بيان، الذي بعثه ربه رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين،

وبعـــد ؛؛؛

فقد اعتنى الإسلام الحنيف بالإنسان، وكرَّمه على سائر خلْقه، وأمر بحُسْن معاملته لا سيما في مرحلة الكبر، مرحلة الضعف والعجز، وكان للبيان النبوي دور كبير في التعبير عن تلك المعاني في بلاغة عالية لا تُضاهَى، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، لذا جاء هذا البحث تحت عنوان: **(من بلاغة التعبير النبوي عن كبار السن)**.

ومن أسباب اختيار الموضوع ما يلي:

١. شرف الانتساب إلى كلام النبوة.

٢. عدم وجود دراسة بلاغية خاصة بهذا الموضوع.

٣. الرغبة في تطبيق الدرس البلاغي من خلال الدراسة التحليلية، وتطبيقه على النصوص.

وقد سرت في بحثي هذا على المنهج التحليلي الشامل، حيث قمت بتحليل مدلول كل حديث، مع استجلاء لطائف البيان، والأسرار البلاغية، محتكما في كل هذا إلى أمهات مصادر دراسات البيان النبوي، من معاجم اللغة، ودواوين السنة، وشروحها، وكتب البلاغة، مما زخرت به المكتبة الإسلامية العامرة، التي وجدتُ بين طياتها ما كنت أبغي الحصول عليه.

والله أسأل التوفيق والسداد، فهو حسبي ووكيلي، عليه توكلت وإليه أنيب.

التمهيد

مفهوم كبار السن، والألفاظ قريبة الدلالة:

الكبير : نقيض الصِّغَرِ كَبُرَ كِبَراً وكُبْراً فهو كبير وكُبَار وكُبَّار بالتشديد إذا أَفرط، يقول ابن فارس: (كبر) الكاف والباء والراء أصلٌ صحيح يدلُّ على خِلاف الصِّغَر. يقال: هو كَبيرٌ، وكُبَار، وكُبَّار(١).

المُسِنُّ: الرجل الكبير، يقال: أَسَنَّ الرجلُ أي: كَبِرَ، وهو اسم فاعل من (أَسَنَّ) بمعنى: كَبِر، وكَبِرَتْ سِنُّه، وهذا أَسَنُّ من هذا أَي: أَكبر سِنًّا منه(٢).

الكهل: من وخطه الشيب أي خالطه ورأيت له بجالة، أو من جاوز الثلاثين(٣).

الشيْخُ: هو الذي استبانتْ فيه السن وظهر عليه الشيبُ، وقيل: هو شَيْخٌ من خمسين إلى آخره، وقيل: هو من إحدى وخمسين إلى آخر عمره، وقيل: هو من الخمسين إلى الثمانين(٤).

العجوز: من كبر من الرجال والنساء، ويدل على الضعف وعدم القُدْرة(٥).

---

(١) مقاييس اللغة . أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: ٥/ ١٥٣ . تحقيق: عبد السلام محمد هارون . دار الفكر . ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

(٢) لسان العرب . محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري: ١٣/ ٢٢٠ . دار صادر . بيروت . ط: الأولى (بتصرف).

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس . محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي: ٣٠/ ٣٦٠ . تحقيق مجموعة من المحققين . دار الهداية.

(٤) لسان العرب . ابن منظور الأفريقي المصري: ٣/ ٣١ . دار صادر . بيروت . ط: الأولى.

(٥) ينظر: مختار الصحاح . محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي . تحقيق: محمود خاطر: ١/ ٤٦٧ . مكتبة لبنان ناشرون . بيروت . ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

الهَرَم: أقْصى الكِبَر، ويُطْلَق على الشخص الذي بلغ أقْصى الكِبَر، وظهر ضعفه[1].

وإنما آثرت أن يكون عنوان البحث بلفظة الكبير (كبار السن) لأسباب منها:

١. الألفاظ جميعها تتفق في الدلالة على التقدم في السن وبلوغ الكبر.

٢. معظم أحاديث البحث وردت بلفظ كبير السن.

٣. اقتفاء أثر الإمام البخاري . رحمه الله تعالى . حيث أورد بعض أحاديث هذا الباب تحت عنوان: (باب إجلال الكبير).

(١) ينظر: لسان العرب: ١٢/ ٦٠٧، والمعجم الوسيط . إبراهيم مصطفى . أحمد الزيات . حامد عبد القادر . محمد النجار: ٢/ ٩٨٣ . تحقيق: مجمع اللغة العربية . دار الدعوة.

الحديث الأول

عن عبد الله بن عمرو بن العاص . رضي الله عنهما . قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرنَا ويُوَقِّر كَبيرَنَا**»(١)

في هذا البيان النبوي الشريف توجيه إلى الرحمة بالصغار والشفقة عليهم، ووجوب احترام الكبار وتوقيرهم، ومخالفة ذلك ليست من شيم المسلمين وأخلاقهم.

الحديث الشريف مبني على أسلوب التشويق من خلال البدء بجملة: «لَيْسَ مِنَّا»، ووضعها في أول الكلام، فالنفس إذا سمعت هذه الجملة استشرفت إلى معرفة هذه الأصناف التي ينفي النبي صلَّى الله عليه وسلم صلته ونسبه به، ومن ثم يكون هذا زاجرًا لها عن ارتكاب تلك الأمور وتجنبها والحذر من الوقوع فيها، هذا بالإضافة إلى ما أوحى به هذا التشويق من تقرير المعنى في النفوس وتمكينه في العقول.

وقوله صلَّى الله عليه وسلم: «لَيْسَ مِنَّا» كناية عن التبرئة، وتكمن القيمة البلاغية للكناية هنا في كونها ضخمت من حجم المعنى المراد، فجعلت من الذين لا يرحمون الصغار، ولا يوقرون الكبار والمسنين عناصر شاذة في مجتمع المسلمين، بل ويتبرأ منهم النبي صلَّى الله عليه وسلم، والمعنى: ليس على طريقتنا وسيرتنا ومذهبنا ولا بمتخلقٍ بأخْلاقنا، وفيه تغليظ للإثم.

وليس المراد أن من لم يرحم الصغير ولم يوقر الكبير خارج عن ملة الإسلام، ولكن المقصود هو المبالغة في الرَّدْعِ عن ارتكاب هذه الأمور،

---

(١) الأدب المفرد ـ محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ـ تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي . باب إجلال الكبير ـ الحديث رقم/ ٣٥٨ ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ ط: الثالثة ـ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

والتهويل من مآب مَنْ يقترفها، ولذا آثر البيان النبوي الشريف التعبير بأداة النفي «ليس» دون غيرها؛ لأنها تأتي في طرف النفي[1]، فالنفي بها ملائم لسياق الحديث الشريف «حيث إن النفي في مقامات المبالغة والتجوز لا يكون نفيًا جازمًا قطعيًا ، وإنما يراد به إيصال المعنى وتقريبه إلى المخاطب دون الجزم بتحقق المنفى بها»[2].

وبهذا يتضح للقارئ أن المراد من الحديث: أن من لا يرحم الصغير، ولا يُجلّ الكبير فإنه قد ترك اتباع النبي صلَّى الله عليه وسلم والتمسك بسنته، ولم يتخلق بأخلاقه وهديه، وليس المراد أنه أراد بذلك نفْيه عن دين الإسلام، كما يرى بعض العلماء، وليس بصحيح، والله أعلم.

وتأخير المسند إليه وما عطف عليه: «مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرنَا ويُوَقِّر كَبيرَنَا» ووقوعهما في ذيل جملة النفي يشي من طرف خفي بِبُعْدِ من يرتكب هذه الأمور عن أخلاقيات الإسلام، وهدي النبي العدنان، وتأخر منزلة من لم يرحم الصغير أو لم يعرف فضل الكبير، والتحقير من شأنه، ومن لم يؤد حقهما لا يجب أن تكون له الصدارة في اللفظ فضلًا عن أن تكون له الصدارة والتقديم في الواقع، وأن المجتمع الذي يهضم فيه حق الصغير ولم يعرف فيه قدر الكبير مجتمع متأخر، ولن تتقدم الأمم إلا إذا انتشر فيها رحمة الصغير واحترام الكبير وتوقيره.

والحديث فيه امتداد لزمن الفعلين «يرحم . يوقر» وبسط لهما، فالمضارعة فيهما تدل على ضرورة استمرارية تلك الأمور، وأنها جزء أصيل من أخلاق المسلم لا تنفك ولا تتجزأ عنه، وهذا ما أشار إليه طباق الإيجاب

(١) ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح «ضمن شروح التلخيص» . بهاء الدين السبكي١/ ٢٤٦ . دار الإرشاد الإسلامي . بيروت . بدون تاريخ.

(٢) أساليب النفي في القرآن الكريم: تركيبها ودلالتها . صلاح رمضان عبد الله (مجلة جامعة البحر الأحمر . العدد الخامس . ٢٠١٣م . صـ١١٩).

بين صغيرنا ـ كبيرنا.

وأوافق الإمام المناوي ـ رحمه الله ـ في كون «الواو» هنا بمعنى «أو»، يقول: «(الواو) بمعنى (أو) فالتحذير من كل منهما وحده فيتعين أن يعامل كلا منهما بما يليق به فيعطى الصغير حقه من الرفق به والرحمة والشفقة عليه ويعطى الكبير حقه من الشرف والتوقير»[١].

وبداية الحديث بالكلام عن «الصغير» ثم «الكبير» فيه ترتيب وتسلسل منطقي، يتناغى مع أطوار خلق الإنسان في حياته، وكأن الحديث يرسم لنا الواجبات الدينية المستحقة للآخرين من أول الحياة إلى آخرها.

والإضافة في «صغيرنا ـ كبيرنا» لها أكثر من دلالة:

ـ فهي تشير إلى أن تلك الأمور من مبادئ الإسلام وأخلاقه، وليست مجرد واجب دنيوي، ولا بد من تغيير النية في مثل تلك الآداب وتحويلها من كونها آداب اجتماعية إلى أمور تعبدية يثاب فاعلها ويعاقب تاركها، وتقرير أن من لم يرحم الصغير أو يعتدي على الكبير إنما هو اعتداء على شخص رسول الله.

ـ كما أن ضمير الجمع ـ هنا ـ فيه إشارة إلى تعظيم الصغير والكبير في الدين الإسلامي، وتفخيم شأنهما، لذا قال: «صغيرنا ـ كبيرنا»، ولم يقل: الصغير أو الكبير.

ـ هذا بالإضافة إلى ما توحي به تلك الإضافة من أن المجتمع الإسلامي لحمة واحدة، يربط بنِيه نسبُ الإسلام.

ومن دقة البيان النبوي التعبير بلفظة «كبيرنا» ليشمل أي إنسان يكبر منك، سواء أكان شابًا أو شيخًا.

جل روايات الحديث اتفقت في الجزء الأول، واختلفت في الجزء

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ـ عبد الرؤوف المناوي ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر ـ ط: الأولى ـ ١٣٥٦.

الخاص بالكبير:

«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرنَا ويَعْرِفُ حَقَّ كَبِيرِنَا»[١]

« لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرنَا وَيَعْرِفُ شَرَفَ كَبيرِنَا»[٢]

« لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرنَا ويُجِلُّ كَبيرِنَا»[٣]

وتكمن القيمة البلاغية لاختلاف روايات الحديث الواحد في كون بعضها يكمل بعضا، فرواية «حَقّ» تبين بدايةً حقَّ الكبير، ثم تأتي باقي الروايات لتفصِّل وتبيِّن هذا الحق للكبير المتمثل في معرفة قدره، وبيان شرفه، ومن ثم توقيره وإجلاله واحترامه.

وكلمة «يَعْرِفُ» توحي بظلال شتى من إسداء المعروف إلى كل كبير، والاعتراف بفضله وسابق عطائه.

وكلمة «حَقّ» بمثابة صرخة مدوِّية في وجْه كلِّ من يُسيء إلى الكبير، ولا يَقْدُرُهُ حقَّ قَدْرِهِ، فهذه اللفظة تُنَبِّهُنَا إلى حقِّ الكبير، وأن حسن معاملته حق وفرض وليس مجرد منة أو استحسان....

لذا بدأت بهذا الحديث، ومن ثم يمكن القول بأن هذا الحديث هو الحديث الأم في هذا الباب وعمدته.

---

(١) الأدب المفرد ـ محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ـ تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي صـ٨٣ ـ الحديث رقم/ ٣٦٣.

(٢) الجامع الصحيح سنن الترمذي ـ محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي: ٤/ ٣٢٢ ـ الحديث رقم: ١٩٢٠ ـ باب ما جاء في رحمة الصبيان ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون ـ بدون تاريخ.

(٣)المعجم الكبير ـ سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني ـ تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي: ٢٢/ ٩٥ ـ مكتبة العلوم والحكم ـ الموصل ـ ط: الثانية ـ ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٣م.

الحديث الثاني

عَنْ أَبِى مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «إِنَّ مِنْ إِجْلاَلِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلَ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ»(١).

هذا البيان النبوي الشريف فيه دعوة إلى إنزال الناس منازلهم، ووجوب تعظيم الكبير واحترامه، وتبجيل أهل القرءان العاملين بأحكامه، وتعظيم الحاكم العادل وإكرامه، وأن ذلك مما يرضي الله . تعالى . ويثيب عليه.

جاء الحديث الشريف مؤكدًا من خلال التعبير بأمِّ أدوات التوكيد إنَّ للإشارة إلى أن إكرام هؤلاء الثلاثة المذكورين في الحديث من إكرام الله تعالى، وتأكيد أن من يعظمهم فكأنه عظم الله؛ حتى يرسخ في النفوس أن تعظيم هؤلاء الثلاثة إنما هو دين وعقيدة، وأنه من إجلال الله تعالى.

و(تقديم الجار والمجرور "من إجلال الله" قد نبَّه المخاطب وشوَّقه إلى معرفة تلك الأمور التي هي من إجلال الله وتعظيمه، ولذا تمكنت هذه الأمور "إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط" وقَرَّتْ في وجدان المخاطب ووجب عليه أن يبادر إلى تحقيقها، وهذا ما يقصد إليه النبي ﷺ بهذا التقديم)(٢).

وانظر كيف آثر البيان الشريف التعبير بلفظ الجلالة الله دون غيره من الأسماء الحسنى؛ وذلك لما يحمله ذلك الاسم الأعظم من معاني الجلال والهيبة والتبجيل والعظمة، وذلك يعكس للسامع المكانة العظيمة لهؤلاء الأصناف الثلاثة، ومنزلتهم الكبيرة عند خالقهم سبحانه وتعالى.

---

(١) سنن أبى داود . أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني . كتاب الأدب . باب فِي تَنْزِيلِ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ . حديث رقم: (٤٨٤٥) . دار الكتاب العربي . بيروت.

(٢) التشويق في الحديث النبوي ـ طرقه وأغراضه ـ أ. د/ بسيوني عبد الفتاح فيود: ١١٠ ـ الطبعة: الأولى ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

وحتى يعرف العبد مكانة خالقه ورازقه سبحانه وتعالى، وأنه مهما بلغ من العلم فلن يعرف منزلة خالقه، ولن يقدره حق قدره جاء التعبير بـ من التبعيضية التي تدل القارئ على الحقيقة الإيمانية التي تقرر المنزلة السامقة لله رب العالمين، وأن المذكور في الحديث بعضٌ مما يوصل إلى إجلال الله وتعظيمه.

الصنف الأول: (إِكْرَام ذِي الشَّيْبَة الْمُسْلِم)،والمقصود به: الشَّيْخ الْكَبِير فِي الْإِسْلَام، وإكرامه يكون بِتَوْقِيرِهِ فِي الْمَجَالِس وَالرِّفْق بِهِ وَالشَّفَقَة عَلَيْهِ وَنَحْو ذَلِكَ، كُلّ هَذَا مِنْ كَمَالِ تَعْظِيم اللَّه لِحُرْمَتِهِ عِنْد اللَّه.

وفي تقديمه إشارة إلى أن من سبقنا إلى الإسلام يجب أن نقدِّمه في كل الأمور، وأن نضعه في المكانة التي تتناسب مع أسبقيته إلى الإسلام وفعل الطاعات، وأن نأخذ برأيه ومشورته، ونحترم خبرته في الحياة، ونعمل على الاستفادة من حكمته، واستشارته، وعدم إهمال دوره في الحياة.

هذا ما أفهمه من تقديم الكبير على حامل القرآن والحاكم العادل.

وكلمة الشيبة دليل حسي على خبرة الكبير، وحكمته؛ لما له من تجارب طيلة حياته.

وكان للتصوير البياني . هنا . دور بارز في توضيح المعاني المعقولة في صورة أمور محسوسة تراها العيون وتتلمسها النفوس، كل ذلك أبرزته الاستعارة التصريحية في (ذِي الشَّيْبَة) حيث شبهت الشيبة بإنسان يصاحب الكبير ويلازمه طيلة حياته، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه (ذو . الصحبة) على سبيل الاستعارة التصريحية، كل تلك المعاني تعمق في النفس صورة ذلك الرجل الكبير الذي أنهكه الدهر، ونال من عمره وجسده، حتى أمسى في ضعفٍ يحتم على الجميع رحمته وحسن معاملته وإكرامه.

وكان من تمام المعنى الإتيان بالنعت (المسلم)، وهذا القيد يلزم السامع وجوب تبجيل ذلك الشيخ الكبير المسلم ورحمته والرفق به؛ لأنه إذا كان توقير الكبير حق، فلا غرو أن توقير الكبير المسلم يكون ألزم وأولى.

وألمح وراء التعبير باسم الفاعل (المسلم) العديد من معاني السلم والسلام والسلامة، كل تلك المعاني التي لا بد أن نُحيط الكبير بها وأن نراعيها في حقِّه.

والصنف الثاني ممن يدعونا الحديث إلى توقيرهم: (حَامِل الْقُرْآن)، وفيه استعارة مكنية، حيث شبه القرآن بشيء ثقيل يُحمل، وقد كشف هذا التعبير المجازي عمَّا يَحْمِله صاحب القرآن من مَشَاقّ كَثِيرَة تَزِيد عَلَى الْأَحْمَال الثَّقِيلَة، ويؤيد هذا المعنى قول الله تعالى: **{إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً} سورة المزمل: آية رقم: ٥**، ويندرج تحت لفظ حامل القرآن: قارئه وحافظه ومفسره.

ووصف صاحب القرآن بوصفين: (غَيْر الْغَالِي فيه وَالْجَافِي عَنْهُ)، الغُلُوّ: التَّشْدِيد وَمُجَاوَزَة الْحَدّ، والمراد: غَيْر الْمُتَجَاوِز الْحَدّ فِي الْعَمَل بِهِ وَتَتَبُّع مَا خَفِيَ مِنْهُ وَاشْتَبَهَ عَلَيْهِ مِنْ مَعَانِيه، والمتقعر فِي حُدُود قِرَاءَته وَمَخَارِج حُرُوفه والْمُبَالَغَة فِي تجْوِيده.

(وَالْجَافِي عَنْهُ) هو الْمُتَبَاعِد عَنْهُ الْمُعْرِض عَنْ تِلَاوَته، ولا يعمل بأحكامه.

وانظر كيف جعل القرآن إنسانا يحس ويشعر، ويوجب على صاحبه عدم هجره وجفائه، كل تلك المعاني جسدتها الاستعارة المكنية، وكان لها دور بارز في تصوير المعنى المراد.

والصنف الثالث: (وَإِكْرَام ذِي السُّلْطَان الْمُقْسِط) وهو الحاكم الْعَادِل، فإذا وجد في المجتمع الإسلامي الحاكم الذي يحكم بما أنزل الله فالواجب على الرعية نُصرته ومعاضدته واحترمه وتوقيره؛ إجلالًا وإكرامًا لشرع الله

الذي يطبِّقه ويعمل به ويدافع عنه.

ونجد في هذا الحديث الشريف العديد من صور التناسب للجمع بين هؤلاء الأصناف الثلاثة الواجب توقيرها، كما نجد مناسبة في ترتيبهم في الكلام.

أما مناسبة الجمع بينهم فيمكن القول بأن كل واحد من هؤلاء الثلاثة كان له دور في خدمة الإسلام، والعمل على رفعة رايته وتطبيق شرائعه؛

فالشيخ الكبير: أفنى عمره في فعل الطاعات، وشاب شعره وهو يطبق تعاليم الشرع في سلوكه وأفعاله وأقواله.

وحامل القرآن: هو رجل صاحب كلام الله . تعالى . ووهب له وقته وعمره، وعمل بما فيه، وآمن بمتشابهه، وعمل بمحكمه.

والحاكم العادل: هو رجل حكم بما أراد الله . تعالى . وعمل على إشاعة العدل في الأرض، وتمسَّك بالحق، وأعطى كل ذي حق حقه.

ومن وجوه التناسب بين الثلاثة . أيضًا . المجي بالنعت لكل من الثلاثة:

الشيخ الكبير نعت بقوله: المسلم

وحامل القرآن نعت بقوله: غير الغالي فيه والجافي عنه

والسلطان نعت بقوله: المقسط

بل مما زاد التناسب بين الثلاثة مجيء النعت في جميعها مشتقًا (اسم فاعل)؛ وذلك للدلالة على الثبوت والدوام.

أما عن الترتيب بين الثلاثة فنلمح من ورائه ما يلي:

١ . تقديم الشيخ الكبير مناسب تمامًا لتقدم سنه، وسبقه إلى الإسلام وفعل الطاعات.

٢ . مجيء حامل القرآن في وسط الكلام له مدلوله الذي يحتم على صاحب القرآن أن يتصف دائمًا بالوسطية، وعدم الإفراط أو التفريط، في تلاوة القرآن والعمل بأحكامه.

٣ . جاء الحديث عن الحاكم العادل في آخر الكلام إشارة إلى أن هذا المسؤول المقسط ما استحق التبجيل والإكرام من الله . تعالى . إلا لأنه قدَّم مصلحة العباد والبلاد على نفسه، وقدَّم مصلحة رعيته على مصلحته الشخصية، ولا يفكِّر في نفسه ولا ينظر في حاله إلا بعد أن يفكِّر في شعبه ورعيته.

الحديث الثالث:

قال الإمام البخاري – رحمه الله –: حدثنا أحمد بن يونس قال حدثنا زهير قال حدثنا إسماعيل قال سمعت قيسا قال أخبرني أبو مسعود أن رجلا قال والله يا رسول الله إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا فما رأيت رسول الله ﷺ في موعظة أشد غضبا منه يومئذ ثم قال: «**إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ فَإِنَّ فِيهِمْ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ**»(١).

الإسلام دين اليسر والتوسُّط والاعتدال، لا سيما فيما فرض الله ﷻ على عباده المؤمنين، ومن مظاهر التيسير في الإسلام عدم إطالة المأموم في صلاة الجماعة رفقًا ورحمة بالمأمومين، ومراعاة لأحوالهم المختلفة، فإنَّ منهم المريض والكبير والضعيف وذا الحاجة.

وأول ما يلاحظ في هذا الحديث الشريف هو بناؤه على التوكيد: «إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ»، وتنزيل المخاطبين منزلة المنكرين؛ لما بدا عليهم من أمارات الإنكار، وذلك بمخالفتهم ما أمر به الدين الحنيف من التيسير في العبادات ورفع العنت والمشقة عن المصلين في جماعة، وعدم التطويل بهم لدرجة تجعلهم يتركون الصلاة في جماعة، فكأن كل ذلك أمارة إلى إنكار المخاطبين لما جاء به الإسلام وما يحمله جوهره من معاني التخفيف والتيسير، يقول الخطيب القزويني (ت: ٧٣٩هـ) في مقامات التوكيد: «ينزل غير المنكر منزلة المنكر إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار»(٢)،«فيلقى إليه الكلام مؤكدا على طريق الوجوب بتأكيد قوي

(١) صحيح البخاري: كتاب مواقيت الصلاة – باب تخفيف الإمام في القيام وإتمام الركوع والسجود – حديث رقم : (٧٠٢).

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة – للخطيب القزويني – تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي ٧٤/١ (المكتبة الأزهرية للتراث – الطبعة: الثالثة – ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م).

أو ضعيف على حسب ما يقتضيه الحال، إذا راعاه المتكلم»[١].

وقد أكد النبي ﷺ هذه الجملة بأكثر من مؤكد «إنَّ، اسمية الجملة» نظرا لعظم ما ارتكبه هؤلاء الذين لا يراعون أحوال المأمومين في الصلاة وينفّرون الناس . لا سيما كبار السنّ فيهم . من تعاليم الدين الحنيف بسبب التطويل عليهم في الصلاة، فكان العمل بخلاف ما يقتضيه يسر الإسلام وسماحته بمثابة الإنكار لأمر معلوم بالضرورة، فاستوجب مجيء كلامه ﷺ على هذا النحو من التأكيد؛ ترسيخاً لمبادئ التيسير والتخفيف، وتأكيداً لها في نفوس المخاطبين.

و«من» هنا تفيد التبعيض، فليس التنفير من طابع عموم الأمة، وإنما هو شيء يتَّصف به بعض آحادها، فالأصل في الأمة التيسير والتسهيل، وليس التعسير والتنفير.

ويلحظ القارئ تقديم خبر إنَّ على اسمها في قوله ﷺ: «إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ»؛ والعلة البلاغية تكمن في تخصيص المخاطبين بحكم التطويل في الصلاة الذي تسبب عنه نفور بعض الناس عن الصلاة في جماعة، وكأن المعنى المراد: ما كان ينبغي لهذا الأمر أن يصدر «منكم» خاصة أنتم أيها الأصحاب المأمورون بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترغيب الناس في دين الله.

وكما هو معروف أن خطاب النبي ﷺ يتَّسم بالعموم لرفع الحرج عن المخاطب بهذا، وقد جاء الحديث هنا مؤكدًا هذا المعنى، حيث لم يصرح باسم القائل، «فلم يخاطب المُطَوِّل على التعيين، بل عمَّمَ؛ خوف الخجل عليه؛ لطفًا به وشفقة، على جميل عادته الكريمة»[٢]، وهذا من مزيد

---

(١) السابق: ٧٤/١.

(٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري . شهاب الدين القسطلاني (ت: ٩٢٣هـ) . تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي: ٢٨٢/١ (دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط: الرابعة . ١٤٣٨هـ . ٢٠١٧م).

فضله ﷺ وحسن خلقه، وتلك طريقة نبوية تربوية ناجحة في معالجة الأخطاء في ثوب الستر دون إحراج المخطئ أو الإساءة إليه، هذا بالإضافة إلى ما في ذلك الأسلوب من الرجاء في هدايته ورجوعه إلى الصواب.

ومعنى: إن منكم منفِّرين أي: «مَن يلقى الناس بالغلظة والشدة فينْفُرون من الإسلام والدِّين»(١).

يقول ابن فارس: «(نفر) النون والفاء والراء: أصلٌ صحيح يدلُّ على تجافٍ وتباعد، منه نَفَر الدّابّةُ وغيرُه نِفاراً، وذلك تَجافِيهِ وتباعُدُه عن مكانِه ومَقرِّه»(٢).

وتأمل مجيء الكلمة في صورة «اسم الفاعل» وما يدل عليه من ثبوت ودوام يوحيان بفرط التشديد، والتلبث بالتطويل في العبادة، مظنة الفهم الخاطئ من المتشدد بأن ذلك يزيد العبد قربًا من الله ﷻ، ولو علم يقينًا أن النتيجة ستكون التنفير من الدين والشرود بعيدا عنه ما قام بذلك الصنيع الذي ليس من دين الله في شيء.

ويلاحظ المتلقي أن الكلام يزداد ترابطًا، وذلك من خلال استخدام أسلوب الشرط: «فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ» وأوثر التعبير بـ «أيّ» الشرطية؛ لأنها أكثر أدوات الشرط إبهامًا؛ إذ هي بحسب ما تضاف إليه(٣)، والمعنى: «أي واحد منكم»(٤)، وقد ذكرت «ما» بعد «أيّ» فزادتها إبهاما مع إبهامها، «وزيادة ما مع أي الشرطية كثيرة، وفائدتها التوكيد لمعنى الإبهام،

(١) لسان العرب: (نفر) – (دار المعارف – بدون بيانات للطباعة وتاريخ النشر).

(٢) مقاييس اللغة – لابن فارس ٣٦٨/٥ (تحقيق: أ/ عبدالسلام هارون – دار الفكر – ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩م).

(٣) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب . جمال الدين ابن هشام الأنصاري . تحقيق: د/ مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله: ١/ ٨١ . دار الفكر . بيروت . ط: السادسة . ١٩٨٥م.

(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري . بدر الدين العيني (ت: ٨٥٥هـ) . تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر: ٣٥٢/٥ (دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط: الأولى . ١٤٢١هـ . ٢٠٠١م).

وزيادة التعميم»[١]، والغرض البلاغي من ذلك المبالغة في تعميم الحكم وانتشاره، هذا فضلاً عما في ذلك التعميم من إشعار الجميع بالمسئولية، ووجوب إشاعة ذلك الأمر، والالتزام به؛ لبثِّ يسر الإسلام ونشر سماحته، وتطبيق ذلك على أرض الواقع لكي يسعد الفرد وينعم الجميع.

والجار والمجرور (بِالنَّاسِ) يشير إلى أن مصلحة الجماعة مقدّمة على مصلحة الفرد، وفي هذا دلالة على أن الدِّين مبني على اليسر، وأن الطاعة إذا أدت إلى ضياع المصالح، أو لحق الناس منها ضرر خرجت عن مقصود الشارع؛ لأن مثلها يجلب الملل والكسل والانقطاع عن الصلاة.

وجاء جواب الشرط «فَلْيَتَجَوَّز» بصيغة المضارع المقترن بلام الأمر مع الربط بفاء الجواب، ليشير إلي أنه ينبغي للإمام أو الداعية أن يجنح دائما إلى تسهيل طريق الخير إلى الناس، ويحببه إليهم، ويرغبهم فيه، ويكون هذا هو دأب شتى الدعاة في كل مصر وعصر؛ لأن هذا من أقوى أسباب تأليف القلوب، ومن أهم مبادئ الدعوة الحسنة للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

هذا بالإضافة إلى أن معنى الفورية المستنبطة من التعبير بالفاء يعزِّز التيسير بسرعة الاستجابة لأمر النبي ﷺ.

وصيغة الأمر هذه تقتضي الوجوب؛ لعدم وجود قرينة تصرفها إلى غيره، كما أن في قول راوي الحديث: «فما رأيت رسول الله ﷺ في موعظة أشد غضبا منه» ما يؤكد هذا، وكما هو معلوم أنه عليه السلام كان لا يغضب إلا إذا انتهكت حرمة من حرمات الله ﷻ، فغضب النبي ﷺ ونسبته الفتنة لمن يطيل في الصلاة، كل تلك مؤشرات يلوح منها تحريم التطويل في الصلاة[٢].

(١) السابق: ٣٥٢/٥.

(٢) ينظر: عمدة القاري: ٣٥٣/٥.

وقوله ﷺ: «**فَإِنَّ فِيهِمْ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ**» تعليل لما قبله.

وقد أكدت الجملة التعليلية بـ «إنَّ» واسمية الجملة، مع كون المخاطب غير منكر لكلام رسول الله ﷺ، ولكن لما خالف المخاطب ما أمر به النبي ﷺ من دفع المشقة عن المصلين، وعدم وصول الأمر بهم إلى ترك صلاة الجماعة، كما بيَّن ذلك قول الصحابي: «يا رسول الله إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا»، اقتضى الأمر أن ينزل المخاطب منزلة المنكر فيؤكد له الكلام؛ تعريضا بوجوب عدم المخالفة ابتداء.

ثم كان التعبير بـ «في» الظرفية في قوله: «فِيهِمْ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ» غاية في الدقة، حيث توحي بشمول شعور الإمام بجميع المصلين، وأنه يجب عليه أن يضع في اعتباره حال كل واحد من جمهور المصلين، حيث لا يعدم . غالبا . من لا يطيق تحمُّل التطويل في الصلاة، كما يشم القارئ منها رائحة الترابط الأخوي الذي يتوَّج بسياج إسلامي؛ فالضعيف والسقيم والكبير يعيش كُلٌّ منهم داخل نفوس إخوانه المسلمين، ويحوطونه بعطفهم عليه، وحسن رعايتهم له، وكمال إحساسهم به، وفي مقدمة ذلك التخفيف عليه، وعدم زيادته ألما إلى ألمه، ومعاناة إلى معاناته، وهكذا جسَّد لنا هذا الحرف «في» حال الأمة المترابطة المتشابكة، التي تحيط بالضعفاء والمرضى وكبار السن، وتشعر بآلامهم، وتخفف عنهم متاعبهم، فهم جميعا كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

ولعل هذا هو السر في تقديم الجار والمجرور «فِيهِمْ»؛ لأنهم هم مقصد النبي ﷺ في هذا البيان النبوي الشريف، ومحطّ اهتمامه، فكان التقديم للاهتمام بشأنهم، وعدم إغفال الإمام لحالهم، ومدى حرصه عليهم، وعنايته بهم، مما يجعله يخفف في صلاته، ويكون هؤلاء المرضى والضعفاء وكبار

السن في ذهنه وخاطره، لا يغفل عن الشعور بهم في كل صلاة.

وهكذا تتجلى عدالة الشارع الحكيم ورحمته بالضعفاء حيث جعل حالهم هو المؤثر في الحكم وإن كانوا هم القلة والأقوياء هم الكثرة.

وفي قوله ﷺ: «فِيهِمْ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ» إطناب[1]؛ فذِكْرُ «الكبير» بعد «الضعيف» تخصيص بعد تعميم، ويشير هذا الإطناب إلى ضرورة العناية بكبار السن، ومراعاة شعورهم، ولزوم التيسير عليهم، والنهي عما قد يكون سببًا لعدم حضورهم صلاة الجماعة، والإشارة إلى احترام الكبير وتوقيره وإجلاله، وتعظيم سِنِّه في الإسلام.

وهكذا تكاتفت كل مكونات الحديث لترسيخ قاعدة التيسير، والتخفيف على من يؤدي فرائض الله ﷻ، والأخذ بأيدي عباد الله إلى ما يؤلف قلوبهم، ويرضي عنهم خالقهم، من غير إسراف ولا تقصير، لا سيما كبار السنّ منهم.

وفي التعليل بـ «الفاء» خاصة دون غيرها من أدوات التعليل في هذا البيان النبوي إشارة إلى ضرورة المسارعة بتنفيذ هذا التوجيه النبوي الكريم، وضرورة تحلّي الأئمة والدعاة بالرفق والتيسير على المكلفين، ونشر تعاليم الإسلام السمحة، وبثّها في كل زمان ومكان، حتى يعلم الجميع يسر الإسلام ووسطيته.

كما أن هذه الفاء تشي من طرف خفي إلى سرعة مرور الزمان، وتبدّل الأحوال، فشباب اليوم هم كبار الغد، وصحيح اليوم قد يمرض غدًا؛ لذا يجب الحرص على راحة الكبير والضعيف والسقيم، والإحسان إليهم،

(١) الإطناب هو: «زيادة اللفظ على المعنى لفائدة جديدة، وهو خلاف الإطالة، لأن الإطالة زيادة اللفظ على المعنى لغير فائدة». معجم المصطلحات البلاغية وتطورها . د/ أحمد مطلوب: ٢٢٥/١ (مطبعة المجمع العلمي العراقي . ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م).

والرفق بهم، حتى يقيض الله لنا من يرحم هرمنا وضعفنا.

وبداية الحديث بكلام مؤكَّد يتناغى في التركيب مع بناء الجملة التعليلية على التأكيد؛ مما يبرز من أول وهلة أهمية التيسير في العبادات وخطورة التشدد المفضي إلى التنفير، فإذا جاء التعليل مؤكدا ازداد اقتناع السامع بالأمر واستقر المعنى المراد في نفسه، ولا ريب في أن هذا أدعى للقبول والامتثال.

ونلاحظ أن نظْم الحديث كلّه جاء على نسق واحد؛ من حيث تقديم الجار والمجرور في صدر الحديث، وكذلك الأمر في الجملة التعليلية، حيث قُدِّم «منكم» هنا، وقُدِّم «فيهم» هناك، مع التأكيد بـ «إن» في الجانبين، وكذلك تكرار «الفاء» في الجملتين، ولعل السر في هذا التماثل هو وحدة المجتمع وتشابهه في أحواله، فَلِمَ يثقل بعضكم على بعض؟ فأنت الآن فَتِيٌّ قويٌّ وقد تصير غدًا كهلًا ضعيفًا، وتشعر بما يشعر به الآخرون، فكما تدين تُدان، ومن زرع اليوم خيرًا فلن يحصد غدًا إلا الخير.

الحديث الرابع

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «**يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ، وَالْمَارُّ عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ**»(١).

الإسلام دين المحبة والسلام، وتحيته السلام، وفي هذا الحديث بيان لأهمية إفشاء السلام، وإظهار لقواعده وضوابطه، وتوجيه للصغير أن يبادر مَنْ هو أكبر منه بالسلام، وكذا المار بالقاعد، والقليل على الكثير.

الحديث يبين أدبًا من الآداب الإسلامية الرفيعة، وأهمية التحلي بالود والتواضع والرحمة، وقيمة إفشاء السلام بين الجميع، وقواعده، وضوابطه؛ لذا جاء الأسلوب في صورة غير صورته الحقيقية ولا يكون ذلك إلا لغرض بلاغي، حيث ورد الأمر بالسلام بالضوابط التي يذكرها النبي (ﷺ) لأمته عن طريق الخبر لا الأمر المباشر، ويظهر ذلك في قوله (ﷺ): (يُسَلِّمُ) ومعناه: ليسلم، «وقد ورد صريحا في رواية عبد الرزاق عن معمر عند أحمد(٢) بلفظ (ليسلم)»(٣).

وجاء الخبر . هنا . بمعنى الأمر لغرض بلاغي، وهو الحث على الامتثال لآداب السلام التي يوضحها هذا البيان النبوي الشريف، والإسراع إلى معرفتها، والتأكيد عليها، يقول الزمخشري: «إخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله»(٤).

---

(١) صحيح البخاري: كِتَاب الِاسْتِئْذَانِ ـ بَاب تَسْلِيمِ الصَّغِيرِ عَلَى الْكَبِيرِ ـ حديث رقم: (٦٢٣٤).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٦٣/١٤، رقم: (٨١٦٢).

(٣)عمدة القاري شرح صحيح البخاري . بدر الدين العيني الحنفي: ٤٥٩/٣٢.

(٤) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د/ محمد أبو موسى/ مكتبة وهبة، صـ٤١٨، ط: الثانية، ١٤٠٨هـ – ١٩٩٨م.

هذا بالإضافة إلى ما يحمله هذا الأسلوب من دلالة على رفق النبي (ﷺ) بأمته، فهو يلقي إليها الكلام هنا في صورة خبرية، دون الأمر المباشر؛ لأن الأمر الصريح فيه ثقل على النفس البشرية، وفي هذا رفق من النبي ص بأمته.

وأرى في هذا الأسلوب شيئًا ثالثًا: ألا وهو بلاغة التعبير بالفعل المضارع «يُسَلِّمُ» الذي يحمل بين جنباته معنى التجدد والاستمرار، وفيه إشارة إلى ضرورة إفشاء السلام، والتحلي بضوابطه، وشيوع هذا الخلق، وانتشاره في ربوع الأرض، وتجدده، واستمراره باستمرار التكاليف الشرعية حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

والحديث يغرس الرجولة في شخصية الطفل ويعلمه الأدب مع الكبار، من خلال أمره بالبدء بإلقاء السلام على من هو أكبر منه احترامًا وتقديرًا له؛ لأن الكبير قد يغفل هو عن البدء بالسلام، وهو معذور؛ لكبر سنه، ووهن عظمه.

وعلينا أن نربي أولادنا على ذلك، ونعلمهم أن ذلك ليس من الذوقيات الإنسانية فحسب، ولكنه سنة من سنن النبي (ﷺ)، فـ (لا خلاف أن ابتداء السلام سنة أو فرض على الكفاية إذا قام به بعضهم سقط عن بعض وأن رد السلام فرض على الكفاية فإن سلم واحد من الجماعة أجزأ عنهم ، وإن رد واحد من الجماعة أجزأ عنهم»[1]

وقد عبر عن هذه المعاني بحرف الجر «على» الذي يدل على الاستعلاء، وإيثار التعبير بهذا الحرف له أكثر من مدلول:

. هذا الحرف يدل بأصله اللغوي على الاستعلاء، والإسلام يرفض أن

(١) المنتقى شرح موطأ مالك . أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الباجي . تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا: ٣٩٢/٤ . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان.

يتحلَّى الإنسان بالتعالي والفخر والزهو؛ لذا سَنَّ للصغير الفتيّ أن يبادر الكبير الضعيف بالسلام، ويقدّم له يد العون، ويخفض له جناح الذل من الرحمة، وكذا المار مع القاعد، والجماعة القليلة العدد مع الجماعة الكثيرة العدد، وفي هذا بثٌّ لروح المحبة، وانتشار لخلق التواضع، ومن ثَمَّ تترابط فئات المجتمع الواحد، وتتعاضد أركانه، وينعم الجميع بالرحمة والسلام.

. الأمر الثاني الذي ألمحه وراء التعبير بحرف الجر «على» هو الدلالة على الإلزام والضرورة، فالإسلام يحتّم على الصغير والمار والجماعة القليلة البدء بإلقاء السلام، واحترام حق الكبير والقاعد وجماعة المسلمين، ويجعل هذا الأمر من مبادئ الإسلام، وآدابه التي يجب أن نتمسك بها، ونغرسها في نفوس المسلمين.

وعطف قوله (ﷺ): «وَالْمَارُّ عَلَى الْقَاعِدِ» على قوله: «يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ»، وفيه أمر للمار أن يسلم على القاعد؛ لأن الماشي يشبه الداخل على أهل المنزل، ولأن القاعد قد يشق عليه رؤية المارين لكثرتهم، فلم يكلف بالبدء بالسلام دفعًا للمشقة عنه.

وفي رواية أخرى: «وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ»، لكن هذه الرواية أبلغ من رواية ثابت التي بلفظ الماشي؛ لأنه أعم من أن يكون المار راكبا أو ماشيا(١).

وانظر كيف آثر البيان النبوي التعبير بلفظة «الْقَاعِدِ» دون الجالس أو غيرها؛ ولعل فيه لمحة إلى أنه قد يكون هذا الجالس كبيرًا، أو عليلًا، أو به حاجة، ولو ذهبنا إلى سورة النور لوجدنا هذه اللفظة جاءت في سياق يشبه تلك المعاني، حيث جاءت في سياق الحديث عن النساء كبيرات السن

(١) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري . بدر الدين العيني الحنفي: ٣٢/٤٥٩.

اللاتي ليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة، يقول الله تعالى: {وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [سورة النور: ٦٠].

والنوع الثالث الذي يسن له أن يبدأ بالسلام: الجماعة القليلة العدد مع الجماعة الكثيرة العدد: «وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ»، فيسلم القليل على الكثير تعبيرًا عن الاحترام والتوقير والإكرام لهذه الجماعة.

وتأمل التضاد بين: «الصغير . الكبير»، «المار . القاعد»، «القليل . الكثير»:

ففي الجمل الثلاث طباق يعمق المعنى ويقرره ويوضحه، كما يبرز أهمية إفشاء السلام، وإشاعة روح المحبة بين جميع أفراد المجتمع، كما أن في الجمع بين هذه الأطراف المتباعدة تنبيهًا إلى القيام بحق الغير، واحترامه، وتقديره؛ لأن جمع المعاني المتضادة ونظمها في سلك واحد يعمل على جذب انتباه السامع، وإيقاظ شعوره، ولفت نظره، وبذلك تستقر المعاني في نفسه وتثبت.

وعطف بين جمل الحديث الثلاث بالواو؛ للتوسط بين الكمالين، مع عدم وجود مانع من العطف، فالجمل الثلاث خبرية لفظًا، إنشائية معنى، وبينهما صلة ومناسبة في المعنى.

وبين الجمل الثلاث تناسب وجامع: وهو الرغبة في تحقيق التواضع، فالصغير لا بد أن يتواضع مع الكبير، وأن يوقره، ويعامله برفق ولين، والمار قد يغتر بقوته أو الدابة أو الآلة التي يركبها، وهنا لزمه أن يبادر القاعد بالسلام، وألَّا يُعْجَبَ بنفسه، أو براحلته، وأمَّا تسليم القليل فلأجل حق الكثير؛ لأن حقهم أعظم.

الحديث الخامس

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ . رضي الله عنهما . قَالَتْ: لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مَكَّةَ وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ أَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ بِأَبِيهِ يَعُودُهُ فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ: «هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ»، فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ مَسَحَ صَدْرَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ فَأَسْلَمَ»(١).

يظهر لنا هذا البيان النبوي الشريف حقًّا من حقوق الكبير، وأدبًا من آداب التعامل معه، وهو البدء بزيارته في بيته، والسؤال عنه، والذهاب إليه، وعدم إرهاقه بمجيئه هو، وهذا كله من باب التقدير والإجلال له، ومراعاة لضعف قوته، والحرص على راحته، وعدم تكليفه ما لا يطيق.

ويأتي هذا الحديث في سياق إسلام أبي قحافة والد أبي بكر الصديق . رضي الله عنهما . وتظهر فيه شفقة النبي (ﷺ) ورحمته بهذا الشيخ الكبير الذي أتى به ابنه للنبي (ﷺ) ليعلن إسلامه أمامه، واعتمد الحديث على أسلوب الاستفهام المجازي، الذي خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى اللوم والعتاب(٢)، فأفادت «هلَّا» الداخلة على الفعل الماضي معنى العتاب واللوم والتنديم على عدم ترك سيدنا أبي بكر لهذا الشيخ الكبير «والده» في بيته، وهكذا أفصح هذا الاستفهام عن تعليم سيدنا أبي بكر أن مثل هذا ما كان له أن يقع فيه وفيه دليل على فيض الرحمة النبوية، هذا بالإضافة إلى ما فيه

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ـ أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني: ٦/ ٣٤٩ ـ مؤسسة قرطبة ـ القاهرة.

(٢) «هلَّا» من أدوات التحضيض، ومعناه: طلب الشيء بحثّ، وإذا وقع بعدها فعل ماض، فإن معناها يخرج إلى اللوم والتوبيخ فيما تركه المخاطب، أو يُقدّر فيه الترك. ينظر: علم المعاني ـ عبد العزيز عتيق:١٠٨ ـ ط: الأولى ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

من ترغيب في توفير الراحة للكبير، وأنها من آداب الإسلام التي يُثَاب المسلم على فعلها.

والتعريف في لفظة «الشيخ» أفاد تعظيم هذا الرجل المسن، ووجوب توقيره، وإجلاله.

وأشار حرف الظرفية «في» إلى ضرورة القيام على خدمة الكبير، وتوفير الراحة له التي تتمثل في استقراره داخل مسكنه، وأن سعادته تكمن في تواجده وسط أولاده وذريته، والقرب منهم، ومجاورتهم، والاختلاط بهم، والاتصال المباشر بهم، بحيث يتمتع بصره برؤياهم، وتسمع أذنه كلماتهم الحانية عليه، ويشاركونه أفراحه وأتراحه، أما الانفصال عنه أو إيداعه في دار المسنين فليس من الإسلام في شيء.

وهذا ما أفهمه أيضًا من إضافة لفظة «بيت» إلى الضمير العائد على هذا الشيخ الكبير «بيته»، تلك الإضافة التي تحمل بين جنباتها الدلالة على التشريف للكبير وتبجيله، وأحقيته في إضافة المسكن إليه، حتى ولوكان البيت ملكًا لابنه، عملًا بقاعدة: أنت ومالك لأبيك.

ولا يجوز أن أغفل كلمة «بيته» التي جاءت في الكلام بدل داره أو آتيه في مسكنه؛ لأن البيت فيه معنى المبيت، ومعلوم أن المبيت يكون ليلًا، بعد انتهاء اليوم، والفراغ من العمل، وبهذا تشير هذه الكلمة إلى مرور جزء كبير من عمر هذا الشيخ الكبير، وأنه على وشك الرحيل في أيّ لحظة، وقد فات من عمره الكثير، وهذا أدعى لخدمته، والقيام على راحته.

وقيد النبي (ﷺ) الفعل «تَرَكْتَ» بـ «حتى» الغائية؛ لما تحمله من دلالة على المدّ والطول، وجاء التعبير بها في حاق موضعها؛ لأنها تشي بثقل تلك المسافة، وطولها على هذا الشيخ الكبير، مما يستوجب الإتيان إليه، وعدم تكليفه بالمجيء.

كما أنها تدل على انشغال النبي (ﷺ) آنذاك بفرحة النصر، وأحداث

فتح مكة، ووجوده داخل الكعبة لتطهيرها من الأصنام، إلى غير ذلك، ومع كل هذا كان النبي حريصًا على الذهاب بنفسه لهذا الشيخ الكبير في منزله، مما يزيد من قدر كبار السن في نفوس المخاطبين، هذا بالإضافة إلى ترسيخ مبدأ إسلامي يقرر أن العمل الصالح خارج المحاريب لا يقل شأنًا أو أجرًا عن العمل خارجها.

ثم إن طريقة الحديث بُنِيَتْ على التعليم والتربية عن طريق القدوة العملية، فالنبي (ﷺ) كان يتمنى أن يذهب هو بنفسه إلى زيارة هذا الشيخ الكريم، ولعل هذه الطريقة من أفضل الطرق للتأثير على المخاطب، وأدعى للقبول، وأسرع للامتثال، كل تلك المعاني وغيرها أشار إليها التعبير بضمير المتكلم «أنا»، هذا بالإضافة إلى دلالته على تواضعه (ﷺ) المشعر باللين والرفق والقربى.

وقد آثر النبي (ﷺ) التعبير بالإتيان دون المجيء؛ لما في الإتيان من سهولة، ونفاذ، ورفق، وحسن مطاوعة، ولأنه قد يقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول[1]؛ ومن ثم فهو يكشف عن رغبة نفسية مؤكدة دفعت النبي (ﷺ) إلى الحرص على بلوغ تلك الزيارة إلى والد سيدنا أبي بكر، وإمكان الوصول إليه بيسر وسهولة دون معوقات تعوقه، أو أسباب تمنعه.

وقد حرص الحديث على تكرار حرف الظرفية «في» مرة أخرى فقال (ﷺ): «حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ» ترسيخًا لأدب بدأ الكبير بالزيارة، وبهذا يمكن القول بأن هذه الظرفية هي قطب الرحى التي يدور عليها الحديث، ولا يتوصل إلى المعنى المراد بدونها.

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ١٨،٩١، ومقاييس اللغة: ٥١/١، والإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم ـ د/ محمود موسى حمدان: ١٧ مكتبة وهبه ـ ط: الأولى ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

الحديث السادس:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ الْفَضْلِ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ خَثْعَمَ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ أَبِى شَيْخٌ كَبِيرٌ عَلَيْهِ فَرِيضَةُ اللَّهِ فِي الْحَجِّ وَهُوَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَوِىَ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرِهِ. فَقَالَ النبي (ﷺ): «فَحُجِّى عَنْهُ»[1].

البر بالوالدين من أعظم القربات إلى الله تعالى، لا سيما عند الكبر، وفي هذا الحديث الشريف تفصح تلك المرأة الخثعمية (قبيلة باليمن) عن مثال عالٍ من الإحسان إلى أبيها، ورغبتها في القيام بأداء فريضة الحج بدلًا منه؛ لعدم قدرته الصحية، نتيجة الهرم الذي أقعده، وحال بينه وبين بيت الله الحرام، وتأتي الإجابة النبوية مليئة بمعاني الرحمة والتيسير بجواز ذلك وإباحته.

ونقف وقفة سريعة مع بلاغة راوي الحديث (سيدنا عبد الله بن عباس) . رضي الله عنهما . وإيثاره التعبير بلفظة «امرأة» تلك اللفظة التي تجعل القارئ يستحضر أصل اشتقاقها اللغوي وهو المروءة، وكأنه يريد من كل ابن وابنة أن يحرصا كل الحرص على الإحسان إلى الوالدين، والبر بهما، وعدم التقصير معهما؛ لأن ذلك ليس من أخلاقيات الإسلام فحسب، بل إن الفطرة السليمة تستوجب ذلك، والمروءة الصحيحة تستلزمه، هذا ما أفهمه من إيثار حبر الأمة التعبير بتلك اللفظة دون غيرها، «وبذلك نجد أن لكلمات اللغة خلفيات أخلاقية»[2].

وأول ما نلاحظه على كلام المرأة الخثعمية هو البدء بالأسلوب الخبري: «إِنَّ أَبِى شَيْخٌ كَبِيرٌ ....» والغرض من الخبر . هنا . إظهار

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الحج ـ باب الْحَجِّ عَنِ الْعَاجِزِ لِزَمَانَةٍ وَهَرَمٍ وَنَحْوِهِمَا أَوْ لِلْمَوْتِ ـ حديث رقم: (٣٣١٦).

(٢) ينظر: شرح أحاديث مسلم ـ أ. د/ محمد محمد أبوموسى: ٢٥٩/١.

الضعف والعجز لهذا الشيخ الكبير.

ثم أنها أكدت كلامها بـ «إنَّ»، وليس المقصود من التأكيد هنا إلا حال المتكلم وإحساسه بالمعنى وأنه متقرر في نفسه مؤكد في ضميره، فالمخاطب (النبي ﷺ) ليس شاكًا في حديث المرأة، أو مترددًا في قبوله، ولكنها أرادت أن تصوّر حالة أبيها وتنقل المعنى مؤكدًا إلى المخاطب كما أنه مؤكَّد عندها وموثَّق لديها لتؤكده في نفس المخاطب على القدر الذي تحس هي به.

هذا بالإضافة إلى ما يعكسه التوكيد من خوفها على أبيها، وحرصها على القيام بأداء فريضة الحج بدلًا منه، وقبول هذا العمل وكونه صوابًا.

والتعريف في المسند إليه بالإضافة «أَبِى» للتعيين والتحديد لهذا الرجل الذي هو أساس الحوار، ومحلّ السؤال، كما أن في تلك الإضافة الكثير من معاني الرحمة والودّ والتواصل والترابط بين المرأة السائلة وبين أبيها الشيخ الكبير.

وقولها: «وَهُوَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَوِىَ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرِهِ» كناية عن عدم القدرة على السفر، وقد لطفت هذه الكناية لقوة دلالتها على المبالغة في إبراز ضعف هذا الشيخ الكبير، وعدم تحمله لويلات الطريق، ومتاعب السفر، مما يستلزم عدم القيام بأداء فريضة الحج.

ونلاحظ الإطناب في كلام المرأة، وذلك لأكثر من سبب:

. سياق الكلام يستدعي من المرأة الإطناب لأنها في مقام استفتاء عن حكم شرعي، وذلك يستلزم منها وصف حال المسئول عنه (أبيها) وتفصيل ما أصابه من ضعف وكبر ..... حتى يستطيع النبي ﷺ أن يعطي له حكمًا شرعيًا صحيحًا.

. المرأة أطالت في حديثها وبسطته لأنها في مقام الحضرة النبوية، وحُقَّ لها ذلك، إنها تزداد تشريفًا وتكريمًا بحديثها مع خير خلق الله أجمعين ﷺ.

ويأتي الرد من النبي ﷺ بقوله: «فَحُجِّى عَنْهُ»، والفاء هنا فصيحة لإفصاحها عن محذوف والتقدير: إذا كان هذا هو حال المسئول عنه فحجي عنه.

وهذه الفاء تشير إلى أن كلامًا جرى في نفس المتكلم فكفَّه وطواه وأومأ إليه بهذه الفاء، وهذا من فصيح الكلام ونادره، لأن الفاء حرف عطف وقد وقعت في ابتداء كلام، فلا بد أن يكون هناك معطوف عليه(١).

وهذا الحذف جاء مراعاة لحال السائلة المتلهفة الطالبة للجواب، ونلمح وراء هذا الحذف الكثير من معاني الشفقة والرأفة بصاحبة السؤال من المجيب (النبي الرحيم ﷺ)، وذلك من خلال الإسراع بذكر الإجابة، تلك الإجابة التي تقرّ بها عين السائلة، وتسعد بها نفسها، المتمثلة في جواز قيامها بأداء فريضة الحج بدلًا من أبيها (الشيخ الكبير).

كما أن هذه الفاء تزيد من طمأنة المرأة، فهي تعني أن النبي ﷺ ما إن سمع حالة ذلك الشيخ الكبير فقال: «حُجِّى عَنْهُ»، وهذا يعني أن الرخصة في شأن هذا الشيخ الكبير ظاهرة جدًا وأن رسول الله ﷺ وجد له أكثر من مخرج.

وحرف الجر «عن» يشير إلى أنه يتقبل العمل من عامله بالأصالة ويتقبله أيضًا ممن يعمله بالإنابة، فالحق جل شأنه يتقبل منه فيما كان منه لنفسه ويتقبل ما ناب فيه عن والديه، وبهذا تدل كلمة «عن» على معاني الإنابة والوكالة، فهذا الحرف أتاح للمحسنين أن يعملوا لأنفسهم فيتقبّل الله منهم وأن يعملوا لغيرهم فيتقبل الله منهم عن هؤلاء الأغيار.

(١) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري. أ. د/ محمد أبو موسى: ٢٦٩ . مكتبة وهبة . ط: الثانية . ١٤٣١ هـ . ٢٠١٠ م.

وفي رواية أخرى للبخاري:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمَ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَوِيَ عَلَى الرَّاحِلَةِ فَهَلْ يَقْضِي عَنْهُ أَنْ أَحُجَّ عَنْهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»(١).

والاستفهام الموجه من المرأة للنبي ﷺ فيه طلب لمقتضى الحكم الشرعي عن جواز الحج بدلًا من أبيها الذي وضَّحت هيئته في سؤالها، وكانت إجابته ﷺ: «نَعَمْ» مقرة بذلك.

ونلاحظ الإيجاز بالحذف في جواب النبي ﷺ، والتقدير: نعم يجوز لكِ أن تحجي عنه؛ وإنما حذف لدلالة الكلام عليه، وذلك اختصار للكلام.

ولأن الحذف فيه معنى الطرح والإسقاط لبعض الألفاظ؛ وذلك مناسب للتخفيف عن هذا الشيخ الكبير، وسقوط التكليف عنه، وجواز قيام غيره به.

وفي لفظ أخرجه أحمد:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ خَثْعَمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ أَبِي أَدْرَكَهُ الْإِسْلَامُ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ رُكُوبَ الرَّحْلِ وَالْحَجُّ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ أَفَأَحُجُّ عَنْهُ»؟ قَالَ: «أَنْتَ أَكْبَرُ وَلَدِهِ»؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكَ دَيْنٌ فَقَضَيْتَهُ عَنْهُ أَكَانَ ذَلِكَ يُجْزِئُ عَنْهُ»؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «فَاحْجُجْ عَنْهُ»(٢).

والاستفهام في قوله ﷺ: «أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكَ دَيْنٌ...»؟ للتقرير، ودخول همزة الاستفهام عل الفعل «رأيتَ» معناها أخبرني خبرًا ظاهرًا في

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الحج ـ بَاب الْحَجِّ عَمَّنْ لَا يَسْتَطِيعُ النُّبُوتَ عَلَى الرَّاحِلَةِ ـ حديث رقم: (١٨٥٤).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٤٧/٢٦ ـ حديث رقم: (١٦١٢٥).

الواقع ظهور الشيء تراه العيون، فالتعبير بالرؤية فيه تأكيد للمعنى المراد، وكأن وجوب قيام الولد بأداء دَيْنِ الوالد أمر ظاهر عند الجميع، تفرضه الفطرة السليمة، ويلزمه الدين الحنيف، ولا ينكره أحد.

وتظهر حكمة النبي ﷺ في إقناع السائل من خلال بناء الإجابة على التشبيه الضمني، حيث شبَّه الحج بالدَّين في وجوب القضاء، يقول الدكتور علي صبح: (كانت روعة التصوير الأدبي في بلاغة التعبير عن صورة محسة من الواقع في قوله: «أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكَ دَيْنٌ فَقَضَيْتَهُ عَنْهُ أَكَانَ ذَلِكَ يُجْزِئُ عَنْهُ»؟ تستنطق السائل ويقتنع بها، لأن الدَّين لا بدّ من أدائه في الواقع على سبيل الوجوب) (١).

وهكذا جاء التشبيه الضمني تتويجًا لما بيَّنه النبي ﷺ من صحة قيام تلك الولد بأداء فريضة الحج بدلا من أبيه، والحق أن هذا الأسلوب من التشبيه فيه عمق الفكرة وغزارة المعنى ووضوح الإقناع، ويأتي عقب تمام المعنى الذي يريده المتكلم ليكون بمثابة دليل وبرهان(٢).

وفي النفس شيء تريد أن تبوح به، ألا وهو سر اختيار التشبيه بـ «الدَّين» خاصة، وجعله مشبهًا به، فأقول . والله أعلم .: إن المشبه به «الدَّين» يستحضر في ذاكرة الابن سابق برّ والديه به، وما لهما عليه من فضل ويدٍ بعد الخالق . سبحانه وتعالى . وإذا استحضر ذهن الابن سابق رحمة الوالدين به وهو صغير، وما أسدياه إليه من عطف وحنان ورعاية، كل ذلك يحفّزه على البرِّ بهما، والإحسان إليهما، والعمل على قَدَمٍ وساقٍ لردّ الجميل، وأداء الدَّين الذي في رقبته لوالديه؛ لذا جاء المشبه به «الدَّين» في

(١) التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف ـ أ. د/ علي علي صبح:٥٥ . (بتصرف يسير) ـ ط: الأولى . ١٤٢٣هـ . ٢٠٠٢م.

(٢) ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها. فضل حسن عباس: ٣/ ٧٠،٧٣.

حاق موضعه، ولمس سويداء قلب الابن؛ ومن ثم كان حريصًا كل الحرص على القيام بأداء فريضة الحج بدلا من أبيه، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!

وأخيرًا: تآزرت الروايات المختلفة لهذا الحديث الشريف في إظهار صحة قيام الولد بأداء فريضة الحج بدلا من أبيه الكبير في السنِّ الذي أقعده الهرم، وحال بينه وبين زيارة بيت الله الحرام، وهذا من سماحة الإسلام ويسره، ومن باب البرِّ والوفاء بالوالدين، وردّ الجميل إليهما، والاعتراف بفضلهما.

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتمُّ الصالحات، والصلاة والسلام على أَبْلَغِ الخَلْقِ بيانًا، وأفصحهم لسانًا، سيدنا محمد ﷺ الذى خُتمت برسالته كل الرسالات،

وبعد،،،

فبعد تلك الصحبة المباركة لأحاديث النبي ﷺ عن كبار السن، فإني أُلَخِّصُ أهم وأبرز نتائج البحث فيما يلي:

أولًا: الإيجاز سمة بارزة في أحاديث النبي ﷺ عن كبار السن، وذلك مناسب تمامًا لمرحلة كبار السن وما يعتريها من ضعف يتطلب الوصول إلى المعنى المراد وإقناع المخاطب به من أقصر طريق.

ثانيًا: ظهر بصورة واضحة كثرة مجيء الفعل المضارع، ولعل السر في ذلك الدعوة المستمرة إلى توقير الكبير والحفاظ على حقوقه في كل وقت وحين.

ثالثًا: كان لأسلوب التضاد دور كبير في ترسيخ مفهوم حق الكبير في البيان النبوي الشريف، ولا سيما (الطباق) الذي جمع للمخاطب مرحلتي الشباب والشيب في مساحة واحدة، مما يكون دافعًا للاستجابة والامتثال، فكما تدين تُدان.

رابعًا: التأكيد بأُمِّ أدوات التأكيد (إنَّ) بارز في جُلِّ أحاديث النبي ﷺ عن كبار السن، مما لا يدع مجالًا للشك في أن توقير الكبير من أهم أهداف الشريعة الغراء.

خامسًا: كثرة ورود حرف الجر (على) يُحَتِّمُ على كل مسلم ضرورة مراعاة حقوق كبار السن، ووجوب الالتزام بتوجيهات الشريعة تجاههم، دون تهاون أو تقصير.

ومن جملة توصيات البحث:

أولًا: توصى الدراسة بإمكانية تناول هذا الموضوع في نطاق القرآن الكريم؛ فمادته سوف تكون أغزر، ومقاماته أبرز؛ إذ يمكن تتبعه عبر مقاماتٍ معينة ينبني أحدها على الآخر، وفى القرآن مادة خصبة له قد تكون أكثر من شواهده في السنة النبوية.

ثانيًا: دراسة حقوق كبار السن في دواوين الشعراء.

وبعد،،،

فهذا جُهْدُ المُقِلِّ، وحسبي شرفًا أني صاحبت كلام خير خلق الله أجمعين ﷺ، فإنْ كان من صواب فمن فضْل الله عليَّ وكرمه وتوفيقه، وإنْ كان غير ذلك فالله أرجو أن يعفو ويصفح، إنه حسبي ونعم الوكيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا

الدكتور/ مستور عبد الفضيل عبد الحميد يعقوب
مدرس البلاغة والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدسوق

قائمة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم ـ د/ محمود موسى حمدان . مكتبة وهبه ـ ط: الأولى ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٣. الأدب المفرد ـ محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ـ تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ ط: الثالثة ـ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٤. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري . شهاب الدين القسطلاني (ت: ٩٢٣هـ) . تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي . (دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط: الرابعة . ١٤٣٨هـ . ٢٠١٧م).

٥. الإيضاح في علوم البلاغة – للخطيب القزويني – تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي . (المكتبة الأزهرية للتراث – الطبعة: الثالثة – ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م).

٦. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د/ محمد أبو موسى/ مكتبة وهبة، ط: الثانية، ١٤٠٨هـ – ١٩٩٨م.

٧. تاج العروس من جواهر القاموس . محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي . تحقيق مجموعة من المحققين . دار الهداية.

٨. التشويق في الحديث النبوي ـ طرقه وأغراضه ـ أ. د/ بسيوني عبد الفتاح فيود ـ الطبعة: الأولى ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٩. التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف ـ أ. د/ علي علي صبح ـ ط: الأولى . ١٤٢٣هـ . ٢٠٠٢م.

١٠. الجامع الصحيح سنن الترمذي ـ محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي ـ باب ما جاء في رحمة الصبيان ـ دار إحياء التراث العربي ـ

بيروت ـ تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون ـ بدون تاريخ.
١١. سنن أبى داود . أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني . دار الكتاب العربي . بيروت.
١٢. شرح أحاديث من صحيح البخاري. أ. د/ محمد أبو موسى: ٢٦٩ . مكتبة وهبة . ط: الثانية . ١٤٣١ هـ . ٢٠١٠ م.
١٣. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح «ضمن شروح التلخيص» . بهاء الدين السبكي . دار الإرشاد الإسلامي . بيروت . بدون تاريخ.
١٤. علم المعاني ـ عبد العزيز عتيق ـ ط: الأولى ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤٣٠هـ . ٢٠٠٩م.
١٥. عمدة القاري شرح صحيح البخاري . بدر الدين العيني (ت: ٨٥٥هـ) . تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر .(دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط: الأولى . ١٤٢١هـ . ٢٠٠١م).
١٦. فيض القدير شرح الجامع الصغير ـ عبد الرؤوف المناوي ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر ـ ط: الأولى ـ ١٣٥٦هـ.
١٧. لسان العرب . محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري . دار صادر . بيروت . ط: الأولى.
١٨. مختار الصحاح . محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي . تحقيق: محمود خاطر . مكتبة لبنان ناشرون . بيروت . ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.
١٩. مسند الإمام أحمد بن حنبل ـ أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني ـ مؤسسة قرطبة ـ القاهرة.
٢٠. المعجم الكبير ـ سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني ـ تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي ـ مكتبة العلوم والحكم ـ الموصل ـ ط: الثانية ـ ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٣م.
٢١. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها . د/ أحمد مطلوب . (مطبعة

المجمع العلمي العراقي . ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م).
٢٢. المعجم الوسيط . إبراهيم مصطفى . أحمد الزيات . حامد عبد القادر . محمد النجار . تحقيق: مجمع اللغة العربية . دار الدعوة.
٢٣. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب . جمال الدين ابن هشام الأنصاري . تحقيق: د/ مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله ـ دار الفكر . بيروت . ط: السادسة . ١٩٨٥م.
٢٤. مقاييس اللغة . أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا . تحقيق: عبد السلام محمد هارون . دار الفكر . ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
٢٥. المنتقى شرح موطأ مالك . أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الباجي . تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا ـ دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص	٣٢٣
المقدمة	٣٢٥
التمهيد	٣٢٦
الحديث الأول : عن عبد الله بن عمرو بن العاص . رضي الله عنهما . قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: **«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرنَا ويُوَقِّر كَبيرَنَا»**	٣٢٨
الحديث الثاني : عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «إِنَّ مِنْ إِجْلاَلِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلَ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ»	٣٣٢
الحديث الثالث: قال الإمام البخاري – رحمه الله –: حدثنا أحمد بن يونس قال حدثنا زهير قال حدثنا إسماعيل قال سمعت قيسا قال أخبرني أبو مسعود أن رجلا قال والله يا رسول الله إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا فما رأيت رسول الله ﷺ في موعظة أشد غضبا منه يومئذ ثم قال: **«إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ فَإِنَّ فِيهِمْ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ»**	٣٣٧
الحديث الرابع : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): **«يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ، وَالْمَارُّ عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ»**	٣٤٤
الحديث الخامس : عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ . رضي الله عنهما . قَالَتْ: لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مَكَّةَ وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ أَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ بِأَبِيهِ يَعُودُهُ فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ: «هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ»، فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ مَسَحَ صَدْرَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ فَأَسْلَمَ»	٣٤٨
الحديث السادس: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ الْفَضْلِ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ خَثْعَمَ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ أَبِي شَيْخٌ كَبِيرٌ عَلَيْهِ فَرِيضَةُ اللَّهِ فِي الْحَجِّ وَهُوَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَوِيَ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرِهِ. فَقَالَ النبي (ﷺ): «فَحُجِّي عَنْهُ»	٣٥١
الخاتمة	٣٥٧
قائمة المصادر والمراجع	٣٥٩
فهرس الموضوعات	٣٦٢